الدار الآخرة

العرض على الله للحساب



الشيخ ندا أبو أحمد

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الـــدَّارُ الآخِـــرَةُ

(٢٤)

الْعَرْضُ عَلَى اللّه لِلْحِسَاب

للشيخ / نـــدا أبو أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الدَّارُ الآخِرة
الْعَرْضُ عَلَى الله لِلْحِسَاب

تمهيد

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..........

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [سورة آل عمران:١٠٢]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [سورة النساء:١]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا {٧٠} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب:٧٠-٧١]

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله – تعالى – وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

علمنا فيما سبق أن الناس يقفون في أرض المحشر خمسين ألف سنة حفاة عراة غرلاً، وقد ركبهم من الغمِّ والهمِّ والكرب ما لا يطيقون؛ فيلجأون إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى **عليهم السلام** حتى يقضي الله بينهم ويبدأ الحساب، وكل رسول منهم يقول: "لست لها، لست لها، ثم يأتون النبي ﷺ فيقول: أنا لها، أنا لها، فيسجد بين يدي الله ﷻ، ويحمده بمحامد ألهمه الله إياها، ثم يقول الله تعالى له: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع"؛ فيشفع النبي ﷺ وتقبل شفاعته، ثم يبدأ الحساب والفصل بين العباد.

مشهد الحساب:

إنه مشهد رهيب، حيث يقف الناس جميعاً في أرض المحشر، فلم يتخلف منهم أحد،
كما قال رب العالمين في كتابه الكريم: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً} [الكهف:٤٧]، وأحاطت الملائكة بالناس في ساحة القضاء الإلهي، ويؤتى بالشياطين والوحوش بعد عتوها وتمردها، خاشعة منكسرة رءوسها لذل العرض على الله، ويؤتى بالمجرمين الذين تمرَّدوا على رب العالمين، واستعلوا في الأرض مفسدين، يؤتى بهم مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران، كما قال الرحيم الرحمن:
{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ{٤٩} سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ{٥٠} لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم:٤٩-٥١]
ويؤتى بالرسل والأنبياء ليُسْألوا عن الرسالة والبلاغ، ويؤتى بالأشهاد ليشهدوا على الخلائق والعباد.

وهنا يتجلَّى الله تعالى في ساحة العرض، ويأتي إتياناً يليق به ﷻ، وتضيء أرض المحشر بنوره،
كما قال تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{٦٩} وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} [الزمر: ٦٩-٧٠]

- يأتي الله تعالى للحساب والجزاء والفصل بين العباد:

قال تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [البقرة:٢١٠]

وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً{٢٥} الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً} [الفرقان: ٢٥-٢٦]

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

"يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء، وتفطرها، وانفراجها بالغمام، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ؛ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجئ الرب - تبارك وتعالى - لفصل القضاء {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النجم:٣١]. اه

إن مشهد الحساب مشهد مهيب، يجعل الأمم جميعاً تجثو على الرُّكَب لهوله وعظمته، كما قال رب العالمين في كتابه الكريم: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية:٢٨]

- وفي هذا الموقف العصيب، ترى القلوب قد صعدت إلى الحناجر من شدة الخوف، وشخصت الأبصار، وخشعت الأصوات، فلا تسمع إلا همساً، قال تعالى:

{وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً}[طه:١٠٨]، ولا يتجرأ أحدٌ أن يتكلَّم إلا بإذن من الله تعالى، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً} [النبأ:٣٨]

ومع هذا الخوف الشديد والصمت الرهيب ينادى على اسمك من بين الخلائق، أين فلان بن فلان؛ فيُلْقي الله في روعك أنك أنت المقصود؛ فتقبل على عرش الواحد الدَّيَّان، ليس بينك وبينه ترجمان، ويسألك على النقير والقطمير، يسألك على الصغير والكبير، فكيف أنت أيها الغافل عندما يسألك الله عن قبيح فعلك، وعظيم جرمك، كيف أنت عندما يسألك الله، ويقول لك: عبدي لِمَا جعلتني أهون الناظرين إليك، فانظر بأي لسان تجيب، وبأي قدم تقف بين يديه، وبأي عين تنظر إليه.

فلنعلم جميعاً أننا سنقف هذا الموقف، ومَن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسئول، ومَن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جواباً، وللجواب صواباً؟

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال:

"ما منكم من أحدٍ إلا وسيكلِّمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة "

يقول الإمام القرطبي رحمه الله كما في كتابه "التذكرة" (١/٤٩٦) باختصار:

"فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب، ونصبت الموازين، وقد نوديت باسمك على رءوس الخلائق: أين فلان ابن فلان؟ هلم إلى العرض على الله تعالى، وقد وُكِّلَت الملائكة بأخذك، فقرَّبتك إلى الله، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك، فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغيَّر لونك، وطار قلبك، تخطي بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه، والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، وقد طار قلبك، واشتد رعبك.

فتوهَّم نفسك، وأنت بين يدي ربك، في يديك صحيفة مخبرة بعملك، لا تغادر بليَّة كتمتها، ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل، وقلب منكسر، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بليةٍ قد كنت نسيتها ذكَّرك الله إياها!، وكم من سيئةٍ قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها!، وكم من عملٍ ظننت أنه سلم لك وخلص، فردَّه عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيماً! فيا حسرة قلبك، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك. اه

قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة:٦]

- وفي هذه اللحظات يتمنَّى الإنسان أن لو رجع إلى الدنيا مرة أخرى ليتزود لهذا الموقف، قال تعالى: {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً{٢١} وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً{٢٢} وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسان وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{٢٣} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر:٢١-٢٤]

- وهاهو يحيى البَكَّاء قُرِئَ عنده: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[الأنعام:٢٧]؛ فصاح صيحةً مكث منها مريضاً أربعة أشهرٍ يُعادُ من أطراف البصرة"

[الإحياء:٤/١٩٤]

وسمع عليٌّ بن الفضيل الآية السابقة فخرَّ مغشياً عليه فقلبوه، فوجدوه قد مات.

- فهذا الموقف الجليل العظيم قطع قلوب العارفين، وقسم ظهور المتقين.

– يقول أبو الدرداء ﷺ: "أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه؟، وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمداً وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله يوم تبدو السريرة علانية، ثم لايدري إلى الجَنَّة أو إلى النار.

– وكان الحسن البصري رحمه الله يقول:

"يحق لَمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده أن يطول حُزنه".

وجاء في "الحلية" لأبي نعيم (٦/٢٣٥) عن عنبسة الخوَّاص قال:

"كان عتبة الغلام يزورني فربما بات عندي، قال: فبات عندي ذات ليلة فبكى في السحر بكاءً شديداً، فلما أصبح قلت: لقد فزَّعت قلبي منذ الليلة ببكائك، فيم ذاك يا أخي؟! فقال عتبة: يا عنبسة، والله إني ذكرتُ يوم العرض على الله، ثم مال ليسقط فاحتضنته، فجعلتُ أنظر إلى عينيه يتقلبان، وجعل يخور، فناديته: عتبة عتبة أجبني، فلم يجبني، ثم هَذَى – أي تكلَّم بكلام غير مفهوم –، فناديته: عتبة عتبة، فأجابني بصوت خفي: قطع ذكر العرض على الله أوصال المحبين، ثم جعل يحشرج حشرجة الموت، ويقول: أتُراك تُعَذِّب مُحبيك وأنت الحيّ الكريم، فلم يزل يردِّدها حتى – والله – أبكاني"

أخي الحبيب:

تذكر وقوفك يوم العرض عُريانا ... مستوحشاً قَلِقَ الأحشاء حيراناً
والنار تلهب من غيظٍ ومن حَنقٍ ... على العُصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبد على مَهَلٍ ... فهل تري فيه حرفاً غير ما كانا
فلما قرأت ولم تُنكر قراءته ... وأقررت إقرار مَنْ عرف الأشياء عِرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ... وامضوا بعبدٍ عصى للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا ... والموحدون بدار الخُلد سكانا

فرحمة الله على الرعيل الأول، علموا شدة الموقف، ورهبة المشهد، فكان من حالهم ما علمنا، ونسأل الله تعالى أن ينجينا بفضله ومَنِّه وكرمه من هذا الموقف العصيب.

القواعد التي يُحاسَب العباد على أساسها[1]

لو عَذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالماً لهم، لأنهم عبيده وملكه، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

ما للعباد عليه حق واجب   كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبِعَدْلِهِ او نعموا   فبفضله وهو الكريم الواسع

ولكن الحق – تبارك وتعالى – يحاكم عباده محاكمة لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل، وقد بيَّن لنا ربنا في كثير من النصوص جملة القواعد التي تقوم عليها المحاكمة والمحاسبة في ذلك اليوم.

وسنذكر من ذلك ما ظهر لنا من تلك القواعد:-

أولاً: عدل الله التام الذي لا يشوبه ظلم:

قال تعالى: {ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [البقرة:٨١]

وقال تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[يس:٥٤]

وقال تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦]

وقال تعالى: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}   [غافر:١٧]

أيها المظلوم صبراً لا تهن   إن عين الله لا تنام

نم قرير العين واهنأ خاطراً   فعدْلُ الله قائمٌ بين الأنام

فالله تعالى يوفي عباده في يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة، ولا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء: ٤٧]

(١) القيامة الكبرى لعمر سليمان الأشقر رحمه الله (ص ١٩٦-٢٠٧) باختصار وتصرف.

ثانياً: لا يؤخذ أحد بجريرة غيره:

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه، أن الله يجازي العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يحمل الحق – تبارك وتعالى – أحداً وزر غيره، كما قال تعالى: {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[الأنعام:١٦٤]، وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه، فالمهتدي يقطف ثمار هدايته، والضال ضلاله على نفسه، قال تعالى: {مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء:١٥]

وهذه القاعدة العظيمة إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها، قال تعالى:
{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{٣٦} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{٣٧} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{٣٨} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسان إِلَّا مَا سَعَى{٣٩} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{٤٠} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى}[النجم: ٣٦-٤١]

يقول القرطبي في "تفسيره" (١٥٧/٤٠) عند قوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[الأنعام:١٦٤]: "أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها، وأصل الوزر: الثقل، ومنه قوله تعالى: {وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ}[الشرح:٢]، وهو هنا الذنب.

إشكال والرد عليه:

قد يظن بعض أهل العلم أن ما سبق ذكره – أن الإنسان لا يحمل شيئاً من أوزار الآخرين- قد يتعارض مع قوله تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[العنكبوت:١٣]
وقوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ}[النحل:٢٥]

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص، وليس بمعارض لها، فإن هذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه، ومثل أجر من اهتدى بهديهم، واستفاد بعلمهم، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه.

ويدل على هذا ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَن اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً"

ثالثاً: إطلاع العباد على ما قدَّموه من أعمال:

من إعذار الله لخلقه، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدَّموه من صالح أعمالهم وطالحها، حتى يحكموا على أنفسهم، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر.

قال تعالى: {إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[المائدة:١٠٥]

وقال: { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } [آل عمران:٣٠]

وقال: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الانفطار:٥]

وقال: { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [الكهف: ٤٩]

وقال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة: ٦]

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم، وقراءتهم لها، فقد أخبرنا ربنا – تبارك وتعالى – أنه وكّل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها، فإذا مات ختم على كتابه، فإذا كان يوم القيامة أُعْطِي العبد كتابه، وقيل له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

قال تعالى: {وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً{١٣} اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} [الإسراء: ١٣-١٤]

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [الكهف: ٤٩]

رابعاً: مضاعفة الحسنات دون السيئات:

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة {إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [التغابن:١٧]

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}[الأنعام:١٦٠]

أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها {وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا} [الأنعام:١٦٠]

وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

"إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمَن همَّ[1] بحسنةٍ فلم يعملها؛ كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة[2]، وإن همَّ بها فعملها؛ كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإذ همَّ بسيئةٍ فلم يعملها؛ كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها؛ كتبها الله سيئة واحدة"

خامساً: تبديل السيئات حسنات لَمن تاب وحسُنَت توبته

وهذا من رحمة الله تعالى وفضله على المؤمنين، الذين تابوا توبة نصوحاً وأكثروا من فعل الخيرات قال تعالى: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [الفرقان:٦٨-٧٠]

وجاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في "صحيحه" عن أبي ذر ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: "إني لأعلم آخر أهل الجنَّة دخولاً الجنَّة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيقول نعم. لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكاناً كُلّ سيئةٍ حسنةً، فيقول: ربِّ، عملتُ أشياءَ لا أراها ها هنا" قال أبو ذر: "فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه".

(١) همَّ: أرادها وترجَّح فعلها عنده.

(٢) كاملة: وصف حسنة وذكرها لئلا يظن أنها لكونها مجرد همَّ ينقص ثوابها.

سادساً: إقامة الشهود على الناس:

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم، السميع البصير الذي رأى أفعالهم، وسمع كلامهم، ولا تخفى عليه خافية من أحوالهم، قال تعالى:

{وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس:٦١]،

وقال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[المجادلة:٦]

فالله ﷻ لا يحتاج إلى مَن يخبره عن عباده، أو يشهد عليهم بما فعلوه، إلا أنه ﷻ لكمال عدله وإعذاراً للعالمين أقام شهوداً عليهم، هي تنقطع الحجج، وتقر الجموع بعدل الله المطلق.

وجاء ذكر الشهود في قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر:٥١]

وقال تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الزمر: ٦٩]

وقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨]

مَن هؤلاء الشهود؟

١- شهود من الملائكة:

من المعلوم أن لكل إنسان منا مَلَكٌ عن يمينه يكتب الحسنات، ومَلَكٌ عن شماله يكتب السيئات، وهم الذين قال الله عنهم:{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{١٠} كِرَاماً كَاتِبِينَ{١١} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}[الانفطار:١٢] فهؤلاء الملائكة الكاتبون هم الذين يشهدون، كما جاء في الحديث عند مخاصمة العبد لربه يوم القيامة، فيقول هذا العبد: "رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول رب العزة: بلى، فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول رب العزة: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً..." الحديث (أخرجه مسلم)

- وقال تعالى: {وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}[ق:٢١]
أي ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله.

٢- شهود من الرسل:

فيشهد كل رسول على أمته أنه قد بلَّغهم الرسالة وأدى الأمانة لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل، قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}[يونس:٤٧]، ومجيء الرسول إنما يكون للشهادة، كما قال تعالى:{وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}[النحل:٨٤]

وقال تعالى: {وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[القصص:٧٥]

٣- وتشهد أمة محمد ﷺ على الخلق:

فبعد أن تشهد الرسل على أقوامهم يوم القيامة، فلا تجد هذه الأمم مهرباً إلا بتكذيب رسلها، فيكذبونهم - كما كانوا يكذبونهم في الدنيا- ويقولون: ما جاءنا من نذير، فتأتي هذه الأُمَّة: أمة محمد ﷺ، وتشهد للرسل بأنهم بلغوا الرسالة وأدُّوا الأمانة، قال تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج:٧٨]

- وأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
"يُدعَى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأُمَّته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمَّته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جلَّ ذكره:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [البقرة:١٤٣]"

٤- شهود نبيِّنا محمد ﷺ علينا:

- مر بنا في الآية السابقة قوله تعالى: {لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [البقرة:١٤٣]

وأيضاً قوله تعالى: { وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ }[الحج: ٧٨]

وقال تعالى: { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل:٨٩]

٥- شهود الأرض:

والأرض تكون يوم القيامة من الأشهاد، فتشهد على الإنسان بما عمل عليها من خير أو شر

ودليل ذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال:

قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}[الزلزلة:٤]، قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا، الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها"

٦- شهود الجوارح:

فإذا لج العبد في الخصومة، وكذَّب ربَّه، وكذَّب الشهود الذين شهدوا عليه، أقام الله عليه شاهداً منه، فتشهد على المرء أعضاؤه

قال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور:٢٤]

وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٢٠} وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [فصلت:٢٠-٢١]

وقال تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: ٦٥]

- وأخرج الإمام مسلم عن أنس ﷺ قال:

"كنا عند النبي ﷺ فضحك، فقال: أتدرون ممَّا أضحك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: من مخاصمة العبد ربه، فيقول: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فِيهِ، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: - يعني لأعضائه- بعداً لَكُنَّ، فعنكنَّ كنت أجادل".

وصدق القائل حيث قال:

العمر ينقص والذنوب تزيد ... وتقال عثرات الفتى فيعود

هل يستطيع جحود ذنبٍ واحدٍ ... رجلٌ جوارحه عليه شهود

- وأخرج ابن ماجه وابن حبان بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه قال:

"لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر، قال: ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس؛ مرَّت بنا عجوز من عجائزهم تحمل على رأسها قُلة من ماء، فمرَّت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفها ثم دفعها، فخرَّت على ركبتها فانكسرت قُلَّتها، فلما ارتفعت التفتت إليه، فقالت: سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً، فقال النبي ﷺ: صدقت صدقت كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم"

٧- وأخيراً شهودهم على أنفسهم:

إذا رأى العبدُ الحقَّ، وتبيَّن له أن الله لا تخفى عليه خافية، ورأى كل ما عمله مكتوباً في صحيفته، وقامت عليه الشهود، ورأى أنه لا برهان له ولا حجة، أقرَّ واعترف بما جنى واقترف، قال تعالى:

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأنعام:١٣٠] (اليوم الآخر في القرآن الكريم: ص٣٤٣)

أول مَن سيُسْأل ويحاسب من الناس هم الرسل

فأول شيء يتم عند بدء الحساب هو سؤال الله الرسل عن تبليغ رسالاتهم، فكما أن الله تعالى سيسأل من أرسل إليهم الرسل، فكذلك سيسأل الرسل. قال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف:٦]

ويبدأ الله تعالى بسؤال المرسلين أولاً، كما في قوله تعالى:

{يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [المائدة:١٠٩]

قال "صاحب الظلال" (٣/٦٨) في هذه الآية: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ} الذين فرَّقهم الله في الزمان فتتابعوا على مداره، وفرَّقهم في المكان فذهب كلٌّ في قريته، وفرَّقهم في الأجناس فمضى كلٌّ إلى قومه، يُدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام، حتى يأتي خاتمهم بالدعوة الواحدة لكلِّ
زمان ومكان وللناس كافة، يجمعهم جميعاً، ويسألهم {مَاذَا أُجِبْتُمْ} ورأى المرسلون أنهم بحضرة العليم الخبير، فاستحيوا أن ينطقوا بشيء؛ فردوا العلم إلى الله تعالى، فقالوا: {لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}
أي لا علم لنا بحقيقة الأمر، فإن الرسل بشر من جملة البشر لا يعلمون إلا ما ظهر، وأما ما خفي واستتر فلا يعلمه إلا اللطيف الخبير، وقَبِلَ الله منهم هذا الجواب المختصر.

- **سؤال عيسى** عليه السلام:

بعد ذلك يتوجَّه الله تعالى بسؤال خاص إلى عيسى ابن مريم– عليهما السلام –:

{وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ} [المائدة:١١٦]

وهذا السؤال يوجهه الله إلى عيسى عليه السلام بحضرة مَن اتخذه وأمه إلهين من دونه سبحانه، وهذا تهديد لهؤلاء، وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد، أما عيسى فيبادر بالتسبيح والتتريه {قَالَ سُبْحَانَكَ}
ويسرع إلى التبرؤ من هذا القول {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} ثم يستشهد بذات الله على براءته، ويظهر أمام الله عبوديته وافتقاره، وعظمة الله وسلطانه {إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{١١٦} مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } [المائدة:١١٦-١١٧]
ثم يخلي يده منهم بعد وفاته، ويقرر أنه لبشريته لا يدري ما أحدثوه بعده، فيقول: {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة:١١٧]

وينتهي إلى التفويض المطلق في آمرهم فيقول: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

[المائدة:١١٨]

- **سؤال نوح ﵇:**

ثم يُؤتَى بنوح ﵇ ويسأله الله ﷻ: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم رب، لكن قومه ينكرون، فتشهد الأُمَّة المحمدية له يوم القيامة أنه بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة

فقد أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ قال:

"يجيءُ نوحٌ وأُمَّته، فيقول الله: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم أي ربِّ، فيقول لأُمَّته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاء لنا من نبي، فيقول لنوح: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمَّتُه، وهو قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}[البقرة:١٤٣]، فيُدعون، فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم" – والوسط: العدل.

تنبيه:

الأُمَّة المحمَّدية لا تشهد لنوح ﵇ فحسب، بل تشهد لجميع الأنبياء

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

"يجيئ النبيُّ يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الثلاثة، وأكثرُ من ذلك، فيقال له: هل بلَّغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: مَن يشهد لك، فيقول: محمدٌ وأُمَّتُه، فيُدعى محمدٌ وأُمَّتُه، فيُقال لهم: هل بلَّغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم، فيُقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبيُّنا، فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا فصدَّقناه، فذلك قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [البقرة:١٤٣]" (صحيح الجامع:٨٠٣٣)

- **وينادى على آدم:**

كما جاء في "صحيح البخاري" عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال:

"أول مَن يدعى يوم القيامة: آدم، فتتراءى [له] ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك: فيقولُ: يا رب كم أخرج؟ فيقول: أخرج من كل مائة تسعة وتسعين، قالوا: يا رسول الله إذا أُخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون، فماذا يبقى منا؟ قال: إن أُمَّتِي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود"

أول مَن سيحاسب من الأمم، الأُمَّة المحمدية

فمن مظاهر تكريم الله للأمة المحمدية أن يجعلها أول الأمم تحاسب، ودليل ذلك:-

- ما أخرجه الإمام مسلم عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق"

- وعند ابن ماجه من حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"نحن آخرُ الأمم، وأولُ مَن يحاسب، يقال: أينَ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ نبيها، فنحنُ الآخرونَ الأوَّلونَ"

(صحيح الجامع:٦٧٤٩)

- وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة، بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا اليوم- الجمعة - الذي كتبه الله علينا هدانا الله له، والناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد"

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله كما في "فتح الباري":

"وفي قول النبي ﷺ: "نحن الآخرون" أي الآخرون زماناً، الأولون منزلة، والمراد: أن هذه الأُمَّة وإن تأخَّر وجودها في الدنيا عن الأُمَم الماضية، فهي سابقة لهم في الآخرة بأنهم أول مَن يُحْشَر، وأول مَن يُحاسَب، وأول مَن يقضى بينهم، وأول مَن يدخل الجَنَّة..." اه بتصرف

- ويدل على هذا أيضاً ما أخرجه أبو داود أن النبي ﷺ قال:

"نحن الآخرون الأولون، وأولَ مَن يحاسب، ويفرج لنا في الأمم عن طريقنا، ويقولون: كادت هذه الأُمَّة أن تكون أنبياء كلها "

الأمور التي يسأل عنها العبد يوم القيامة

من المعلوم أن العبد سيُسْأل يوم القيامة عن جميع أفعاله، كما قال تعالى: {وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[النحل:٩٣]، وقال تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: ٩٢-٩٣]

لكن هناك بعض الأعمال سيُسْأل الله عنها العباد يوم القيامة، وهذه الأعمال نص عليها القرآن دون غيرها؛ ليزداد الخوف من فعلها، وهي كالتالي:-

أولاً: الكفر والشرك:

من المعلوم أن الشرك هو السيئة الوحيدة التي لا يغفرها الله لصاحبها إذا مات عليها
قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء:٤٨]

بل حرَّم الله عليه الجَنَّة؛ كما قال تعالى على لسان عيسى ﷺ:
{إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة:٧٢]
فالله تعالى يسأل هؤلاء المشركين يوم القيامة عن عبادتهم لغيره، وتقديم القرابين لآلهتهم المزعومة،
قال تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ} [النحل:٥٦]

- والله تعالى يُوبِّخ هؤلاء المجرمين الذين صرفوا العبودية للشيطان من دون الرحمن قال تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}[يس:٥٩-٦٢]

قال ابن كثير رحمه الله: "يخبر تعالى عما يؤول اليه الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، أي: يفترقوا عن المؤمنين في موقفهم، كقوله ﷻ: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ }[الروم:١٤]، وقوله تعالى:
{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم.

ولهذا قال تعالى: {وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي وهذا هو الصراط المستقيم فخالفتم أمري وأطعتم الشيطان، ولهذا قال ﷻ:
{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً}أي خلقاً كثيراً، {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} أي أفما كان لكم عقل لَمَّا خالفتم ربكم وعبدتم معه غيره، وأطعتم الشيطان وهو عدوكم الظاهر العداوة،{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}[يس:٦٣]، يقال للكفار توبيخاً: هذه جهنم التي كنتم تكذبون الرسل بوجودها، والتي كنتم بها توعدون، ذوقوا عذابها وحريقها جزاء كفركم وتكذيبكم. اه (مختصر تفسير ابن كثير:٣/٧٣)

- وهذه الآلهة المزعومة عندما ينادي عليها المشركون يوم القيامة؛ فلا تستجيب لهم، فهي لا تملك جلب نفع أو دفع ضر، قال تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً} [الكهف:٥٢]

- أخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد بن فضالة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"إذا جمع الله الأولين والآخرين، ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَن كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك" (صحيح الجامع:٤٨٢)

- وأخرج الإمام أحمد عن محمود بن لبيد ﷺ قال رسول الله ﷺ:

"إن أخوف ما أخاف عليكم الشركُ الأصغرُ: الرِّيَاء، يقول الله يوم اليقامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟"

(صحيح الجامع: ١٥٥٥)

- وأخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحدٍ، ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كان يعبد؟ فيمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون فيطلع عليهم رب العالمين..." الحديث (صحيح الجامع: ٨٠٢٥)

وفي النهاية فالنار تجمع المشركين وآلهتهم؛ كما قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ{٩٨} لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ{٩٩} لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]

سؤال وجواب:

وبعد ما تقدَّم يبقى سؤال يطرح نفسه بقوة وهو: هل الكفار يُسْأَلون، ويُحَاسَبُون ويُعرَضُون على رب العالمين، أم يأمر بهم إلى النار من غير سؤال ولا حساب، لأن أعمالهم حابطة؟

الجواب: إن هذه من المسائل الخلافية بين أهل العلم

– فذهب البعض إلى: أنهم لا يحاسبون، وهو قول أبي بكر بن عبد العزيز، وأبي الحسن التميمي والقاضي أبو يعلى... وغيرهم.

ولعل ما يستدلون به:-

قوله تعالى: { وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصص:٧٨]

وقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥]

وقوله تعالى: {وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [البقرة: ١٧٤]

– بينما ذهب فريق آخر من أهل العلم إلى: أنهم يحاسبون، وهو قول أبي حفص البرمكي من أصحاب أحمد، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو طالب. (انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/٣٠٥)

والراجح: "أن الكفار محاسبون مسئولون، كما أن أعمالهم توزن، ويدل على ذلك نصوص عامة منها قوله تعالى: {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ{٦} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ{٧} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ{٨} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ{٩} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ{١٠} نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة: ٦-١١]

وقوله تعالى: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً} [الكهف:٤٨]

وقوله تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{٢٥} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [الغاشية: ٢٥-٢٦]

– أما الأدلة التي جاءت نصاً، والتي تدل على أن الكفار يُسْأَلون؛ قوله تعالى:

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ}[القصص:٦٢]، وقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص:٦٥]، وقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ}[الأعراف:٦]، وقوله: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ{١٠٣} تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ{١٠٤} أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ} [المؤمنون:١٠٣-١٠٥]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{١٢} وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ

أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [العنكبوت:١٢-١٣]، ولا شك أن هذه النصوص في الكفار والمشركين.

وهناك سؤال آخر أيضاً يفرض نفسه وهو: لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم، مع أن أعمالهم حابطة باطلة مردودة؟

والجواب: أن ذلك يتم لأمور:-

أولها: إقامة الحجة عليهم، وإظهار عدل الله فيهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، وهو صاحب العدل المطلق، ولذلك يسألهم ويحاسبهم، ويطلعهم على سجلاتهم التي حوت أعمالهم، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء:٤٧]، وقوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [الكهف: ٤٩]

يقول القرطبي رحمه الله في "كتابه التذكرة" (ص٢٢٥):

"والباري ﷻ يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة".

- ثانيها: أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب: موازنة الحسنات بالسيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الاعتبار.

وإن أريد به المعنى الثاني، فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجَنَّة، فهذا خطأ ظاهر". (مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣٠٥/٤)

وهذا التأنيب والتقريع والتوبيخ ظاهر من نصوص كثيرة؛ كقوله تعالى:

{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنعام:٣٠]، وقوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأنعام:١٣٠]

وقوله: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ{٩١} وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ}[الشعراء:٩١-٩٢]

وقوله: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} [القصص:٦٤]

قال ابن كثير في "النهاية"(٣٥/٢):

"وأما الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رءوس الخلائق"

- ثالثها: أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها، فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق، يقول القرطبي رحمه الله: "وفي القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها(أي فروع الشريعة) مسئولون عنها، محاسبون بها، مجزيون على الإخلال بها، لأن الله تعالى يقول:
{... وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{٦} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...} [فصلت:٦-٧]، فتوعدهم على منعهم الزكاة،
وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{٤٢} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{٤٣} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{٤٤} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{٤٥} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المدثر:٤٢-٤٦]، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسئولون عنها، مجزيون بها.
(التذكرة للقرطبي: ص٣٠٩)

- رابعها: أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب، فالنار دركات بعضها تحت بعض، كما أن الجَنَّة درجات بعضها فوق بعض، وكلما كان المرء أشد كفراً وضلالاً؛ كلما كان أشد عذاباً، وبعض الكفرة يكون في الدرك الأسفل من النار، ومنهم المنافقون
{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: ١٤٥]

- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" (٣٠٥/٤):
"عقاب مَن كَثُرَت سيئاته أعظم من عقاب مَن قلَّت سيئاته، ومَن كان له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذاباً من أبي لهب؛ فكان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجَنَّة".

وهناك سؤال آخر يفرض نفسه وهو: إذا لم يكن للكفار حسنات فما الذي سيوزن؟

يجيب عن هذا القرطبي رحمه الله حيث قال: "والجواب عن هذا من وجهين:-

الأول: أنه يوضع في إحدى الكفتين كفره وسيئاته، ولا يجد الكفار حسنة توضع في الكفة الأخرى، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة.

والثاني: أن حسنات الكافر من صلة رحم، وصدقة، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه. (التذكرة للقرطبي: ص٣١٢)

والراجح: هو القول الأول؛ لأن الشرك والكفر يحبط العمل؛ لقوله:

{لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥]

وقال تعالى: { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً} [الفرقان:٢٣]

وقال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: ١٨]

وقال تعالى: {مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[1] [آل عمران:١١٧]

ومما يدل على ذلك أيضاً ما أخرجه الإمام مسلم وأحمد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

"يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين".

تنبيه:

الأعمال الصالحة التي يعملها الكافرون والمشركون؛ يجازيهم الله بها في الدنيا من الصحة والأمن والرزق والأولاد، و لم ينقصهم شيئاً من أجورهم، ولكن في الآخرة ليس لهم إلا النار.

(١) الصِرُّ: هو البرد الشديد، وهذه الرياح الباردة هي الكفر والشرك التي تحرق أعمالهم الصالحة.

ففي "صحيح مسلم" و"مسند أحمد" أن رسول الله ﷺ قال:

"إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يعطى بها في الدنيا – وفي رواية: "يثاب عليها الرزق في الدنيا – ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها"

(السلسلة الصحيحة:٥٣)(صحيح الجامع: ١٨٥٣)

علمنا أن الكفار سيحاسبون، فكيف يتم توجيه النصوص الدالة على أن الكفار لا يُسألون؟

كقوله تعالى: {وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}[القصص:٧٨]، وقوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ}[الرحمن:٣٩]، وقوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ{٣٥}وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}[المرسلات:٣٥-٣٦]، ونحو ذلك من النصوص.

فنقول: ليس بين هذه النصوص، والنصوص التي تقرر أنهم يحاسبون ويُسألون تعارض، وقد وفق أهل العلم بينهما بوجوه عدة:-

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لِمَ عملتم كذا وكذا؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ.

(التذكرة للقرطبي: ص٢٨٦-٢٨٧)

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: "لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة".

(لوامع الأنوار البهية: ١٧٤/٢)

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي: "القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك". (التذكرة للقرطبي:٢٨٦)

وقال السفاريني: "وقيل: يسألون في موطن دون موطن" (رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما)، فللناس يوم القيامة حالات، والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات، ومن ثم قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية:

"أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون، فذلك قوله تعالى: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً}[السجدة:١٢]

(لوامع الأنوار البهية:١٧٤/٢)

فإذا أذن لهم في الكلام تكلّموا، واختصموا، فذلك قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}[الزمر:٣١]، عند الحساب وإعطاء المظالم، ثم يقال لهم بعد ذلك: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ} [ق:٢٨]، يعني في الدنيا، فإن العذاب مع هذا القول كائن. (لوامع الأنوار البهية:٢/١٧٤)

الرابع: قال القرطبي في "التذكرة"(ص٢٨٧): "إن معنى قوله تعالى:

{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة أن يقال: ما دينك؟ وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كان كافراً، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكون المشركون سود الوجود زرقاً مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم. (القيامة الكبري لعمر سليمان الأشقر رحمه الله بتصرف)

ثانياً: من جملة ما سيُسْأَل الناس عنه يوم القيامة، الكذب في حق الملائكة:

فقد افترى البعض الكذب وجعلوا الملائكة إناثاً، وقد أخبر الله تعالى عنهم فقال:

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ{١٤٩} أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ{١٥٠} أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ{١٥١} وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{١٥٢} أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ{١٥٣} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{١٥٤} أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{١٥٥} أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ} [الصافات:١٤٩-١٥٦]

والله ﷻ سيحاسبهم على هذا القول يوم القيامة يسألهم عنهم قال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [الزخرف: ١٩]

تنبيه:

علي الإنسان أن يحذر أن يتكلم في هذه الأمور بغير علم، وهذا حالهم كحال الذين يزعمون أن الإنسان أصله قرد، فيقال لهم كما قيل لهؤلاء: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ}[الزخرف:١٩]

والله تعالى يقول: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً} [الكهف:٥١]

(عالم الملائكة الأبرار لعمر سليمان الاشقر رحمه الله: ص١٧)

ثالثاً: السؤال عن إضلال الناس:

قال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [العنكبوت: ١٣]

وهذا شأن أهل الضلال حيث يطلبون من أهل الايمان أن يتبعوهم على طغيانهم وفسوقهم، وسيتحملون عنهم التبعات يوم القيامة، وصوَّر لنا القرآن الكريم هذا الحوار.

فقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}، ثم بيَّن الله راداً على افتراء هؤلاء: {وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، ثم قال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [العنكبوت: ١٢-١٣]

رابعاً: السؤال عن الصلاة (وهي أول ما يُحاسَبُ عليه العبد من أعماله يوم القيامة):

أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله – تبارك وتعالى – الصلاة، فإن صلحت أفلح ونجح، وإلا خاب وخسر.

– فقد أخرج الترمذي والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن أولَ ما يحاسبُ به العبدُ يومَ القيامة من عمله صلاتُهُ، فإن صلحت فقد أفلحَ وأنجحَ، وإن فسدت فقد خاب وخسر [فإن انتقص من فريضته شيئاً. قال الرب – تبارك وتعالى-: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك]"

(صحيح الجامع: ٢٠٢٠)

– وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم: الصلاة، قال: يقول ربنا ﷻ لملائكته: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامَّة كتبت له تامَّة، وإن كان انتقص منها شيئاً، قال: انظروا، هل لعبدي من تطوُّع، فإن كان له تطوُّع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال بعد ذلك" (صحيح الجامع:٢٥٧١)

– وأخرج الطبراني من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت؛ صلح سائر عمله، وإن فسدت؛ فَسَدَ سائرُ عمله" (صحيح الجامع:٢٥٧٣)

خامساً: السؤال يوم القيامة عن أمورٍ خمس:

فكل إنسان يُسأَل يوم القيامة عن خمسة أمور، ولا ينصرف من عند ربه حتى يجيب عنها، وهذه الأسئلة جاء ذكرها في الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزولُ قدما ابنِ آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يُسْأَل عن خمس: عن عُمُرِه فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عَمِلَ فيما عَلِمَ؟" (صحيح الجامع:٧٢٩٩)،(الصحيحة:٩٤٦)

– وفي رواية أخرى أخرجها الترمذي أيضاً من حديث أبي برزة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأَل عن أربع: عن عُمُرِه فيم أفناه، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه " (صحيح الجامع:٧٣٠٠)

تنبيهان:

١- يُلاحَظ في الحديث الأول أن الإنسان سيُسْأَل عن عمره فيم أفناه، ثم سيُسْأَل عن شبابه فيم أبلاه، ولعل قائل يقول: "لماذا ذكر الشباب بعد العمر؟ والشباب قطعة من العمر؟

والجواب: أن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام لبيان أهمية الخاص، أي أننا سنُسْأَل عن العمر، وأهم مرحلة من العمر سنسأل عنها هي مرحلة الشباب.

وهذا كقوله تعالى: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}[البقرة:٢٣٨]، فمع أن الصلاة الوسطى من جملة الصلوات إلا أنها ذكرت بعد ذكر الصلوات، وهذا أيضاً من باب إضافة الخاص بعد العام لبيان أهمية الخاص، أي حافظوا على الصلوات جميعها وخصوصاً الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر.

٢- عندما يعلم الإنسان منا أنه سيُحاسَب على هذا المال، من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ يعلم السر الذي من أجله كان النبي ﷺ يدعو إلى الزهد في الدنيا والتخفُّف من المال، فكلما كَثُرَ مال العبد كثر حسابه وطال، وكلما قلَّ ماله خفَّ حسابه وأسرع به إلى الجَنَّة.

- فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي عبد الرحمن الحُبلي قال:

"جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وأنا عنده، فقالوا: يا أبا محمد، إنا والله ما نقدر على شيء، لا نفقهة ولا دابة، ولا متاع، فقال: ما شئتم، إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يَسَّرَ الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجَنَّة بأربعين خريفاً"

- وأخرج الطبراني في "الكبير" بسند حسن عن عبد الرحمن بن سابط قال:

"أرسل عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعيد بن عامر الجمحي: إنا مستعملوك على هؤلاء، تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم (فذكر حديثاً طويلاً فقال فيه:) قال سعيد: وما أنا بمختلف عن العُنُق الأول بعد إذ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في فقراء المسلمين: "يُزَفُّون كما يُزَّفُّ الحمام، فيُقَال لهم: قفوا للحساب، فيقولون: والله ما تركنا شيئاً نُحاسبُ به، فيقول الله ﷻ: صدق عبادي؛ فيدخلون الجَنَّة قبل الناس بسبعين عاماً"

- وأخرج ابن حبان عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
"تجتمعون يوم القيامة، فيقال: أين فقراء هذه الأُمَّة؟ قال: فيقال لهم: ماذا عملتم؟ فيقولون: ربنا ابتلينا فصبرنا، ووليتَ الأموال والسلطان غيرنا، فيقول الله ﷻ: صدقتم، قال: فيدخلون الجنَّة قبل الناس، وتبقى شدة الحساب على ذوي الأموال والسلطان، قال: قالوا: فأين المؤمنون يومئذ؟ قال: توضع لهم كراسي من نور، وتظلَّل عليهم الغمام، يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار".

سادساً: السؤال عن النعيم الذي أنعم الله به على العبد في الدنيا [1]:

يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خوَّلهم إياه في الدنيا، كما قال:
{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر:٨]
- أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "النعيم: صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار"
- وقال ابن مسعود رضي الله عنه كما عند الطبراني: "النعيم: الأمن والصحة"
فالنعيم يشمل شبع البطون، وبارد الماء، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم، وقال سعيد بن جبير: "حتى عن شربة عسل"، وقال مجاهد: "عن كل لذة من لذات الدنيا"، وقال الحسن البصري: "من النعيم الغَذاء والعَشاء"، وقال أبو قلابة: "من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي"
(تفسير ابن كثير:٣٦٤/٧)

- وطيب النفس من النعيم

فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه عن عمِّه قال: "كنا في مجلسٍ، فجاء النبي ﷺ وعلى رأسه أثرُ ماء، فقال له بعضنا: نراك اليومَ طيبَ النَّفس، فقال: أجل والحمد الله، ثم أفاض القوم في ذِكْرِ الغنى، فقال النبي ﷺ:لا بأس بالغنى لمَن اتَّقى، والصحة لمَن اتَّقى خير من الفتن، وطيب النفس من النعيم"
(الصحيحة: ١٧٤)
وما ذكره أهل العلم في تفسير النعيم فهو من باب التَّنوُّع، فإن أصناف النعيم كثيرة لا تعد ولا تحصى {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا} [إبراهيم:٣٤]، وبعض أنواع النعيم من الضروريات، وبعضها من الكماليات والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم، ويوجد في عصر ما لا يجده أهل عصور أخرى، وفي بلد ما لا يجده أهل بلاد أخرى، وكل ذلك يسأل عنه العباد.

- ومن ألوان النعيم: العافية والصحة، والماء البارد، والطعام الهنيء، والظل، وكل هذا ستسأل عنه

- فقد روى الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) القيامة الكبرى لعمر سليمان الأشقر رحمه الله

"إن أول ما يُسأَلُ العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك؟ "ونُرَوِّك من الماء البارد "
(صحيح الجامع: ٢٠٢٢)،(الصحيحة: ٥٣٩)
– وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:
"هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسأَلون عنه: ظِلٌّ بارد، ورُطبٌ طيبٌ، وماءٌ بارد"
(صحيح الجامع:٧٠٠١)

– وفي "مسند الإمام أحمد" عن أبي عَسِيب ﵁: "أن النبي ﷺ دخل يوماً حائطاً لبعض الأنصار، فجاء صاحب الحائط بتمرٍ وماءٍ بارد للنبي ﷺ وكان معه أبو بكر وعمر رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ لتسألن عن هذا يوم القيامة". (صحيح الترغيب والترهيب:٣٢٢١)

وأصل الحديث في "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة ﵁ قال:
"خرج رسول الله ﷺ ذات يومٍ أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنه، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوعُ يا رسول الله، قال: وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوما، فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأَهْلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أين فلان؟[1] قالت: ذهب يستعذب لنا الماء[2]، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكْرَمَ أضيافاً مني، فانطلق فجاءهم بعَذْق[3] فيه بُسْرٌ وتَمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كُلُوا، وأخذ المُدية[4]، فقال له رسول الله ﷺ: إيَّاك والحلُوبَ[5]، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذْق وشربوا، فلما أن شبعوا وَرووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعُمر K: والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"

يقول الإمام النووي رحمه الله في "رياض الصالحين":
"والسؤال عن هذا النعيم سؤال تعديد النِّعَم لا سؤال توبيخ وتعذيب. والله أعلم"
– وبعض الناس لا يستشعر النِّعَمَ العظيمة التي وهبه الله إياها، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء، ولقمة الطعام، وفيما وهبه الله من مسكن وزوجة وأولاد، ويظن أن النِّعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب، "وقد سأل

(١) أين فلان: هو رجل من الأنصار يدعى "أبو الهيثم بن التيهان" ﵁
(٢) يستعذب لنا الماء: اي يطلب الماء العذب.
(٣) العَذْق: "الكباشةُ" وهي غصن التمر.
(٤) المُدية: السِّكين.
(٥) الحلُوبُ: ذات اللبن.

رجلٌ عبدَ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك". (مسلم)

- وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"، ومعنى هذا أنهم مُقَصِّرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومَن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

- وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجه الله به عباده في ذلك اليوم.

- ففي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"يُؤتَى بالعبد يوم القيامة، فيقال له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً؟ وسخَّرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع؟ فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول: اليوم أنساك كما نسيتني"

تنبيهان:

١- والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه، فإذا شَكَرَ فقد أدَّى حق النعمة، وإن أَبَى وكفر، غضب عليه الله.

فقد أخرج الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها"

ولكن للأسف الأمر كما قال تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]

٢- المؤمن والكافر سيُسْأل عن هذا النعيم

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله كما في "كتاب الذكر الحكيم" (ص٢٦٦):

"إن المؤمن والكافر سيُسْأل عن هذا النعيم، ولكن يختلف السؤال، سؤال المؤمن تذكير بنعمة الله عز وجل عليه حتى يفرح، ويعلم أن الذي أنعم عليه في الدنيا ينعم عليه في الآخرة، بمعنى أنه إذا تكرَّم بنعمته عليه في الدنيا تكرَّم عليه بنعمته في الآخرة، أما الكافر فإنه سؤال توبيخ وتنديم.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والله إن لم يكن من النعيم إلا نعمة الإسلام لكفى بها نعمة

سابعاً: السؤال عن العهود والمواثيق:

من الأشياء التي يحاسب الله عليها العباد يوم القيامة العهود والمواثيق، قال تعالى:

{وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} [الإسراء: ٣٤]

وسيسأل الله عباده عمَّا عاهدوه عليه {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً} [الأحزاب: ١٥]

ثامناً: السؤال عن السمع والبصر والفؤاد:

يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه، قال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }[ق:١٨]،

ثم حذَّر رب العالمين من القول بلا علم؛ فقال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء:٣٦]، قال قتادة: "لا تقل رأيت و لم تر، وسمعت و لم تسمع، وعلمت و لم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله". (تفسير ابن كثير:٤/٣٠٨)

قال ابن كثير رحمه الله: "ومضمون ما ذكروه في الآية، أن الله نهى عن القول بغير علم، بل بالظن، الذي هو التَّوهُّم والخيال، كما قال تعالى:{اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}[الحجرات:١٢]، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث"، وفي "سنن أبي داود": "بئس مطية الرجل: زعموا"، وفي الحديث الآخر: "إن أفرى الفرى أن يُرِي الرجل عينيه ما لم تريا" وفي "الصحيح": "من تحلَّم حلماً؛ كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل". (تفسير ابن كثير: ٤/٣٠٨)

- وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

"من تحلَّم كاذباً؛ كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ولن يعقد بينهما"(صحيح الجامع: ٦١٣٩)

تاسعاً: السؤال عن الرعية:

فكلٌّ مَن استرعاه الله رعية؛ فإنه سيسأله عنها يوم القيامة، أَحَفِظَ ذلك أم ضيَّع؟

- فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

"ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته "

- وأخرج النسائي وابن حبان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

"إن الله تعالى سائل كل راعٍ عما استرعاه، احفظ ذلك، أم ضيَّعهُ؟ حتى يُسأَل الرجل عن آلِ بيته" (صحيح الجامع: ١٧٧٤)

تنبيه:

هناك أربعة أصناف من الناس لا يُسْأَلُون يوم القيامة، لكن يختبرهم الله يوم القيامة، فمَن أطاع دخل الجَنَّة، ومَن عصى دخل النَّار، وقد ذكر الحبيب النبي ﷺ هؤلاء الأربع، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وابن حبان عن الأسود بن سريع وأبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"أربعة يحتجون يوم القيامة: رجلٌ أَصَمُّ لا يسمع شيئاً، ورجلٌ أحمقُ، ورجلٌ هرِمٌ، ورجلٌ مات في فترة، فأمَّا الأَصَمُّ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمقُ فيقول: ربِّ جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، والصِّبيان يحذفُونني بالبعرِ، وأما الهرم فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لك رسولٌ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنَّهُ، فيَرْسِلُ إليهم: أن ادخُلوا النَّار، فمَن دخلها كانت برداً وسلاماً، ومَن لم يدخلها سُحِبَ إليها" (صحيح الجامع: ٨٨١)

صفة الحساب

تختلف صفة الحساب من شخص لآخر، فهناك حساب سري مع العتاب، وهناك حساب فاضح على رءوس الأشهاد، وهناك الحساب العسير، وهو للكفرة والمشركين الذين يناقشهم رب العالمين، وهناك الحساب اليسير، وهو لأقوام تعرض عليهم أعمالهم فقط، وهناك مَن لا يُحاسَب أصلاً ولنا وقفة مع كل صنف:-

أولاً: الذين يدخلون الجَنَّة بغير حساب ولا عذاب:

ففي هذا المشهد المهيب والموقف العظيم، تتقدَّم زمرةٌ كريمة مباركة من أُمَّة الحبيب ﷺ إلى الجَنَّة مباشرة بلا حساب، فلا تقف هذا الموقف الرهيب، فالناس يُحاسَبُون وهم في الجَنَّة ينعمون، اللهم اجعلنا منهم بكرمك، فهؤلاء الذين جاء ذكرهم في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

"عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم، فظننت أنهم أُمَّتِي، فقيل لي: هذا موسي وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أُمَّتُك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجَنَّة بغير حساب ولا عذاب، هم الذين لا يرقون[1]، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلي ربهم يتوكَّلون"

– **أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد** رضي الله عنه **أن النبي ﷺ قال:**

"ليدخلن الجَنَّة من أُمَّتِي سبعون ألفاً، متماسكون، آخذٌ بعضهم بيد بعض، لا يدخلُ أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر"

– **وأخرج الإمام أحمد عن أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ قال:**

"أعطيتُ سبعين ألفاً من أُمَّتِي يدخلون الجَنَّة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجلٍ واحد، فاستزدت ربي ﷻ فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً"

(صحيح الجامع: ١٠٥٧)،(الصحيحة: ١٤٨٤)

– **وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي امامة ﷺ عن النبي ﷺ قال:**

"وعدني ربي أن يدخل الجَنَّة من أُمَّتِي سبعين ألفاً بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربي" (صحيح الجامع: ٧١١١)

---

(١) *قال الشيخ الألباني* رحمه الله: "قلت: "قوله: "لا يرقون" هو مما تفرد به مسلم دون البخاري وغيره، ثم هو شاذ سنداً ومتناً، كما بينته في محل آخر، وحسبك دليلاً على شذوذه أن النبي ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة.اهـ

ثانياً: مَن يحاسبه الله حساباً يسيراً:

فهناك مَن يكون حسابهم يسيراً، وهؤلاء تعرض عليهم أعمالهم فقط؛ حتى يدركوا نعمة الله عليهم في غفرانها لهم؛ قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{٧} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً} [الانشقاق: ٧-٨]

- وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

"ليس أحد يُحاسَب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{٧} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً} [الانشقاق:٧-٨]، فقال رسول الله ﷺ: "إنما ذلك العرض، وليس أحد يُناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك "

- وفي رواية: "مَن نُوقِش(١)الحساب عُذِّب"

- ونقل الحافظ ابن حجر رحمه الله في "فتح الباري"(٤٠٢/١١)عن القرطبي في معني قوله ﷺ: "إنما ذلك العرض" قال: "إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة" اه

- ويؤكد هذا رواية الإمام أحمد عن عائشة ﵂:

"أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حساباً يسيراً، فلما انصرف، قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟، قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إن مَن نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك"

(قال الألباني في "تخريج السنة":٤٢٩/٢٠: "إسناده صحيح")

---

(١)"نوقش": *يقول الحافظ في الفتح:* "أصلها الاستخراج، ومنه نقش الشوكة إذا استخرجها، والمراد هنا: المبالغة في الاستيفاء، والمعنى أن تحرير الحساب يفضي إلى استحقاق العذاب.

- **وهذه صور من الذين يحاسبهم الله حساباً يسيراً، ثم يتجاوز عن سيئاتهم:**

١- أخرج الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

"يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه ﷻ حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيُعطى صحيفة حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد" {هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨]"

- وفي رواية أخرى عند البخاري بلفظ:

"إن الله يُدنِي المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته".

- والمراد بالكنف: الستر، كما قال عبد الله بن المبارك: "كنفه: ستره" (راجع فتح الباري: ١١/١٨٥)

- يقول القرطبي رحمه الله كما في "كتابه التذكرة" (ص٨٣):

"فيضع عليه كنفه، أي: ستره ولطفه وإكرامه، فيخاطب خطاب ملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة، فيقول له: "هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، فيقول الله ممتنًّا عليه، ومظهراً فضله لديه، فإني قد سترتها عليك في الدنيا، أي لم أفضحك بها فيها، وأنا أغفرها لك اليوم". اه

- وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد بسند حسن في "زوائد الزهد"(ص٢١٥) عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

"يُدني الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه؛ فيستره من الخلائق كلها، ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر، فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك، قال: فيمر بالحسنة فَيَبْيَضُّ لها وجهه، ويمر بالسيئة فَيَسْوَدُّ لها وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدي؟ قال: فيقول: نعم يا رب أعرف، قال: فيقول : (فإني) أعرف بها منك، قد غفرتها لك، قال: فلا تزال حسنة تُقْبَل فيسجد، وسيئة تُغْفَر فيسجد، فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضاً طوبى لهذا العبد الذي لم يعصِ قط، فلا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه".

٢- وأخرج الإمام مسلم عن أبي ذر ﵁ عن النبي ﷺ قال:

"إني لأعلم آخر أهل الجنَّة دخولاً، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجلٌ يُؤتَى به، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه – يعني وارفعوا عنه كبارها – فيعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، قال: فيقال: لك

مكان كل سيئة حسنة، قال: فيقول: رب قد عملتُ أشياء ما أراها هنا، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه"

- **معاتبة الله تعالى لعبده فيما وقع منه من تقصير:**

ففي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مَرِضَ فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني؟ قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني؟ قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه؟ أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟ "

- **صور من كرم الله وعفوه يوم القيامة:**

- أخرج الإمام مسلم من حديث أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:
"يخرجُ من النار أربعةٌ يعرضون على الله ﷻ، فيُأمر بهم إلى النار، فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب قد كنت أرجو إن أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها، فيقول رب العزة: فلا نعيدك فيها"

- وفي "مسند الإمام أحمد" أن النبي ﷺ قال:
"يبعث الله تعالى رجلاً من أُمَّتِي يوم القيامة، فيوزن فيخفف ميزانه، فيؤمر به إلى النار، فلما انصرف به الملائكة إلى النار صار يلتفت، فقال الله: رُدُّوه، فلما عاد، قال الله ﷻ: عبدي، هل ظلمك حفظتي؟ قال: لا والله يا رب، قال الله ﷻ: عبدي ألك حسنة لم تجدها هنا؟ قال: لا والله يا رب، قال الله ﷻ: أرأيت سيئة لم تعملها؟ قال: لا والله يا رب، قال: فما بالك تتلفت؟ قال: ما كان هذا ظني فيك يا رب، فقال الله ﷻ: أَدْخِلُوه الجَنَّة"

إلهي لا تعذبني فإني ... مقرٌ بالذي قد كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي ... لعفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من ذلة لي في الخطايا ... وأنت عليَّ ذو فضلٍ ومَنِّ

- **حديث البطاقة:**

أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
"يصاح برجل من أُمَّتِي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجلٍّ منها مد البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقال: ألك عذرٌ أو حسنة؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا، فيقال: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك، فيخرجُ له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السجلات في كفةٍ، والبطاقة في كفة؛ فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة"

ثالثاً: الله ﷻ يتجاوز عن الذين يُيَسِّرون على المعسرين:

- روى النسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"إن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسَّر، واترك ما عَسُرَ، وتجاوز، لعل الله يتجاوز عنا، فلما هلك قال: هل عملتَ خيراً قط؟ قال: لا، إلا أنه كان لي غلامٌ، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسَّر، واترك ما عَسُرَ، وتجاوز، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال الله: قد تجاوزتُ عنك" (صحيح الجامع:٢٠٧٨)

- روى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاهُ: إذا أتيت معسراً تجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا، قال: فلقي الله فتجاوز عنه"

- وفي "مستدرك الحاكم" بإسناد صحيح عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"أتى الله ﷻ بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملتَ في الدنيا؟ فقال: ما عملتُ من شيء يا رب، إلا أنك آتيتني مالاً، فكنت أبايع الناس، وكان من خُلُقِي أن أُيَسِّر على الموسر وأنظر المعسر، قال الله تعالى: أنا أحق بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي"

(صحيح الجامع:١٢٥)

رابعاً: صور من الذين يناقشهم الله الحساب، ومَن نوقش الحساب عُذِّب:

- ففي "صحيح مسلم"عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال:

"يلقى الرب العبد فيقول: أي فُل[١]، ألم أكرمك، وأسوِّدْك[٢]، وأزوجك، وأُسخِّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترْأس[٣] وتَرْبع؟[٤] فيقول: بلي، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ قال: فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني[٥]، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فلُ، ألم أكرمك، وأسوِّدْك، وأزوجك، وأُسخِّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترْأس وتَرْبع؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصلَّيتُ وصُمتُ وتصدَّقتُ، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذن[٦]، قال: ثم يقال له: الآن نبعث عليك شاهداً عليك، ويتفكَّر في نفسه: مَن ذا يشهد عليَّ؟ فيختم الله على فِيهِ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي؛ فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه[٧]، وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه"

وصدق الله حيث قال: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[يس:٦٥]

وقال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور:٢٤]

---

(١) فُل: أي يا فلان.

(٢) أسوِّدْك: أي أجعلك سيداً على غيرك.

(٣) ترْأس: أي تكون رئيس وكبير القوم

(٤) تَرْبع: أي تركتك مستريحاً لا تحتاج إلى مشقة وتعب.(قالة القاضي)

(٥) أنساك كما نسيتني: أي أمنعك الرحمة كما امتنعت عن طاعتي.

(٦) هاهنا إذن: أي قف هنا حتى يشهد عليك جوارحك، إذ قد صرت مُنكِراً.

(٧) ليعذر من نفسه: أي ليزيل الله عذره من قِبَل نفسه بكثرة ذنوبه وشهادة أعضائه عليها، بحيث لم يبقَ له عذر يتمسك به.

- **حوار رب العالمين مع المرائين الذين هم أول مَن يقضى عليهم يوم القيامة، وأول مَن سيُسعَّر بهم النار:**

أهل الرياء هم الذين صاموا وقاموا وبذلوا الغالي والنفيس لكن لغير وجه الله، إنما للسمعة والثناء الحسن بين الناس، فهؤلاء ليس لهم نصيب في الآخرة،

قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً} [الفرقان:٢٣]

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأُتي به، فعرفه نعمه؛ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى اسشهدت، فقال: كذبت [١]، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء؛ فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه، حتى ألقيَ في النار، ورجل تعلَّم العلمَ وعلَّمهُ، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرفه نعمه؛ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنه تعلَّمتَ العلمَ ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه، حتى ألقيَ في النار، ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به، فعرفه بنعمه؛ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنْفَق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه ثم ألقي في النار"

فهذا حال مَن قاتل لكن ليس لوجه الله، وحال مَن أنفق ليس ابتغاء مرضاة الله، وحال مَن تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن لكن من أجل ثناء الناس، فأعمال هؤلاء {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}[إبراهيم:١٨]، وهؤلاء الذين قال الله فيهم: {وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر:٤٧]

فالله تعالى عاملهم بنقيض قصدهم، فهم الذين أرادوا السمعة والشهرة بين الناس، وإذا بالحق ﷻ يفضحهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة، وصدق الحبيب النبي ﷺ حيث قال:

"مَن سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به" (أخرجه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه)

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال: حدثني رسول الله ﷺ:

"أن الله إذا كانَ يومُ القيامة يترل إلى العباد ليقضي بينهم، وكلُّ أُمَّةٍ جاثيةٌ، فأوَّلُ مَن يدعو به رجلٌ جمع القرآن، ورجل قُتِل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمكَ ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلي، يا ربِّ، قال: فماذا عمِلتَ فما عَلمْتَ؟

---

(١)"كذبت": *يقول النووي* رحمه الله: "معناها لو رددناك إلى الدنيا لما افتديت، لأنك سئلت أيسر من ذلك، فأبيت، ويكون من معني {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[الأنعام:٢٨]، وبهذا يجتمع معنى الحديث مع قوله تعالى: {لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ}[الرعد:١٨](راجع فتح الباري:١١/٤١١)

قال: كنتُ أقومُ به آناء الليل وآناء النهار، فيقولُ الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردتَ أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك،

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أُوسِّع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحدٍ؟ قال:

بلى يا رب، قال: فماذا عملتَ فيما آتيتُك؟ قال: كنت أَصِلُ الرَّحِم، وأتصدَّق، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك،

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قُتِلتَ؟ فيقول: أمرتُ بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتِلتَ، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جرئ، فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال:

يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة" (صحيح الجامع: ١٧١٣)

– قال أبو عثمان: "وحدَّثني العلاء بن أبي حكيم:

"أنه كان سيافاً لمعاوية، فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فُعِل بهؤلاء هكذا، فكيف بمَن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً، حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ{١٥} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥-١٦]

وهذا الحديث فيه تحذير من الرياء وبيان شدة عقوبته، وفيه أيضاً الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال والأقوال والنيات؛ كما قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة:٥]

- **محاورة الله ﷻ لأهون أهل النَّار:**

وأخرج البخاري ومسلم: "يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك[1] أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك (أحسبه قال) ولا أُدخِلك النار، فأبيت إلا الشرك".

- قال القاضي عياض: "يشير بذلك إلى قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف:١٧٢]

فهذا الميثاق الذي أُخذ عليهم في صلب آدم، فمَن وفَّى به بعد وجوده في الدنيا فهو مؤمن، ومن لم يوفِّ به فهو الكافر"

- وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم؟ فيقول الله: كذبتَ، قد أردتُ منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك"

- وأخرج الإمام مسلم عن النبي ﷺ قال:

"يؤتى بالرجل يوم القيامة من أهل الجَنَّة، فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت مترلك؟ فيقول: أي رب! خير مترل، فيقول: سل وتمنَّ، فيقول: يا رب ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأُقْتَل في سبيلك عشر مرات... لما يرى من فضل الشهادة...، ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم: كيف وجدت مترلك؟ فيقول: أي رب! شر مترل، فيقول له: أتفتدي منه بطلاع الأرض ذهباً؟ فيقول: أي رب: نعم، فيقول: كذبتَ، قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيُردُّ إلى النار"

(١) أردتُ منك: والمقصود بها الإرادة الشَّرعية، ويحتمل أن يكون المراد بالإرادة هنا: الطلب، والمعنى: أمرتك فلم تفعل؛ لأنه سبحانه لا يكون في ملكه إلا ما يريد.

خامساً: طائفة لا يُكَلِّمُهُم الله يوم القيامة ولا يزكيهم [1]:

وردت نصوص كثيرة ترهب من ذنوب توعَّد الله مَن ارتكبها بألا يكلِّمه في يوم القيامة ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

فمِن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، وهم الأحبار والرهبان والعلماء الذين يكتمون ما عندهم من العلم إرضاءً لحاكم، أو تحقيقاً لمصلحة، أو طلباً لعرض دنيوي، ككتمان الأحبار والرهبان ما يعرفونه من كتبهم من صفات الرسول ﷺ، وإنكارهم لنبوته، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وقد قال الله في هؤلاء: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٧٤} أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [البقرة: ١٧٤-١٧٥]

قال ابن كثير في "تفسيره"(٣٦٣/١)عند قوله تعالى: {وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ}[البقرة:١٧٤]

"وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم؛ لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، أي لا يثني عليهم ولا يمدحهم، بل يعذبهم عذاباً أليماً"

- وقد روى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال:

"مَن سئل عن علم فكتمه؛ أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار"

(رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان في "صحيحه"، والبيهقي، ورواه الحاكم بنحوه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، و لم يخرجاه)

- وفي رواية لابن ماجه قال:

"ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجوماً بلجام من نار"

---

(١) القيامة الكبري للدكتور عمر سليمان الاشقر رحمه الله.

- ومن الذين يغضب الله عليهم يوم القيامة، فلا يكلمهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه، ويشترون بأيمانهم ثمناً قليلاً، فيحلفون الأَيْمَان الكاذبة تحقيقاً لكسب دنيوي تافه،
قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[آل عمران:٧٧]

- وقد ساق ابن كثير أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية:

منها الحديث الذي رواه مسلم وأهل السنن وأحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
"ثلاثة لا يُكلِّمُهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة [١]، ولا يزكيهم [٢]، ولهم عذاب أليم[٣]: قلت: يا رسول الله، مَن هم؟ خسروا وخابوا، قال: وأعاده رسول الله ثلاث مرات، قال: المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان"
- وفي رواية عند مسلم: "ثلاثة لا يُكلِّمُهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنَّان الذي لا يعطي شيئاً إلا منة، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب"

- ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:
"مَن حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم؛ لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان"

- ومنها ما رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه:
"أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطي فيها ما لم يعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[آل عمران:٧٧]"

- ومنها ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
"ثلاثة لا يُكلِّمُهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجلٌ منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجلٌ حلف على سلعته بعد العصر، يعني كاذباً، ورجل بايع إماماً، فإن أعطاه وفي له، وإن لم يعطه لم يفِ له "
(وقال الترمذي: حديث حسن صحيح)

(١) ثلاثة لا يُكلِّمُهم الله، ولا ينظر إليهم: معناه الإعراض عنهم.
(٢) ولا يزكيهم: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم.
(٣) ولهم عذاب أليم: أي: "مؤلم"، قال الواحدي: "هو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم وجعة"

- وروى البخاري في "صحيحه" عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:
"ثلاثة لا يُكلِّمُهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجلٌ حلف على سلعته: لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك"

- وعند مسلم بلفظ: "ثلاثة لا يُكلِّمُهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجلٌ على فضل ماءٍ بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجلٌ بايع رجلاً بسلعة بعد العصر، فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا، فصدّقهُ وهو على غير ذلك، ورجلٌ بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وَفي، وإن لم يُعْطه منها لَمْ يَفِ"

- ومن الذنوب التي توعَّد الله عليها بعدم تكليم صاحبها، وعدم نظره إليه، وترك تزكيته، غير ما تقدَّم: الشيخ الزاني، والملك الكذَّاب، والعائل (أي الفقير) المستكبر، والعاق لوالديه، والمرأة المتشبهة بالرجال، والدَّيُّوث، ومَن أتى امرأته في دبرها، ومَن جرَّ ثوبه خيلاء.
- ففي "صحيح مسلم" و"سنن النسائي" عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:
"ثلاثة لا يُكلِّمُهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كاذب، وعائل مستكبر"
- وأخرج الطبراني في "الكبير" عن عصمة بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:
"ثلاثة لا ينظر الله إليهم غداً: شيخٌ زان، ورجلٌ اتخذ الأَيْمَانَ بضاعةً يحلفُ في كل حق وباطل، وفقير مختال يزهو" (صحيح الجامع: ٣٠٧٠)
- وفي "مسند أحمد" و"سنن النسائي"، و"مستدرك الحاكم" عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
"ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المُتَرَجِّلة المُتشبِّهةُ بالرجال، والدَّيوث..." الحديث (صحيح الجامع:٣٠٧١)
- وأخرج النسائي والبيهقي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:
"إن الذي يأتي امرأتَهُ في دبرها؛ لا ينظر الله إليه يوم القيامة" (صحيح الجامع: ١٦٩١)

- وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:
"لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَن جرَّ ثوبه بطراً"
- وفيهما أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:
"مَن جرَّ ثوبَهُ خيلاء؛ لم ينظر الله إليه يوم القيامة"
- وعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
"الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، مَن جرَّ منها شيئاً تخيلاً؛ لم ينظر الله إليه يوم القيامة"
(رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه)

- **الحاكم الذي يحتجب عن رعيته**

روى أبو داود وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن أبي مريم الأزدي قال:
قال رسول الله ﷺ:"مَن ولي من أمور المسلمين شيئاً، فاحتجب دون خَلَّتِهم، وحاجتهم، وفقرهم، وفاقتهم، احتجب الله عنه يوم القيامة، دون خَلَّتِه، وحاجته، وفاقته، وفقره"

(الصحيحة: ٦٢٩)، (صحيح الجامع:٦٥٩٥)

- **وأخيراً أختم بهذه النصيحة للفضيل بن عياض:**

فقد جاء في الأثر الذي أخرجه أبو نعيم في "الحلية":
"أن الفضيل بن عياض لقي رجلاً، فقال له: كم عمرك؟ قال: ستون سنة، فقال له الفضيل: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى الله يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: أخي الحبيب: هل عرفت معناها؟ قال الرجل: نعم عرفت أني لله عبد، وأني إليه راجع، قال الفضيل: مَن عرف أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوفٌ بين يديه، ومَن علم أنه موقوف بين يديه، فليعلم أنه مسئول، ومَن علم أنه مسئول، فليعد للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال الفضيل: يسيرة، قال الرجل: ما هي يرحمك الله؟ قال الفضيل: تُحْسِن فيما بقي؛ يغفر الله لك ما قد مضي وما بقي، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذتَ بما مضي وما بقي".

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة

نسأل الله أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منَّا بقبول حسن، كما أسأله ﷻ أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها......إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صواباً فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي

وإن وجدت العيب فسد الخللا　　　جلّ مَن لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه نصيب

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.........

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك